

أولاً : الأخلاق بين القيم والممارسة التطبيقية ملاحظات أولية

د. مجدى عبدالحافظ (*)



إذا كان سؤال الفلسفة قديماً هو سؤال الميتافيزيقا، فإن سؤال الفلسفة اليوم تحول إلى القيم. كما أن الحديث الدائر اليوم عن عودة الفلسفة فى الغرب الذى بدأ فى العشرين عاماً الأخيرة، يربط دائماً هذه العودة بمجال فلسفة الأخلاق⁽¹⁾ عندما نتحدث الآن عن الأخلاق التطبيقية فذلك لأهمية الأسئلة المطروحة على هذا المجال (تحدث عن أخلاق طبية، وأخرى بيولوجية، وأخلاق فى السياسة، وفى الإعلام وفى مجال المال والأعمال والاقتصاد، والبيئة.. إلخ) وقد دفع هذا الزخم لتطور كبير فى مجال التأمل النقدى للأخلاق، عندما شذ الفلاسفة قرائحهم فى تأمل المشكلات الواقعية المرتبطة بالمجالات السابقة، مما جعل لأول مرة حججهم التى يدافعون بها عن مواقفهم، ومبادئهم التى يبنون عليها أحكامهم فى متناول رجل الشارع رغم صعوبة وتعقد المشكلات المطروحة وارتباطها بجذور ابستمولوجية وانطولوجية.

ربما ساهمت هذه الأوضاع اليوم فى وضع مقولة هيجل الشهيرة من أن "يومة مينيرفا لا تبدأ فى الطيران إلا عند الغروب" فى موضع التأمل والمراجعة. ففيلسوف الأخلاق أصبح مطالباً اليوم - أكثر من أى وقت مضى - بأن يدلوا بدلوهم فى "لجان الأخلاق"⁽²⁾ التى شكّلت فى أنحاء العالم الغربى، وأن يصبح فاعلاً فى تلك اللجان المشكّلة من تخصصات أخرى مختلفة. مطلوب منه إبداء الرأى على الفور، وعلى غير مثال مسبوق، أو قاعدة سابقة أو قيمة معروفة، مما يجعل تأملاته التى تعمل على الموازنة بين حقلى القيم النظرية

(*) أستاذ الفلسفة المساعد بكلية الآداب - جامعة حلوان.

والممارسة التطبيقية نوع من البحث عن أخلاق تتسم بطابع ما، مما يمكن أن نطلق عليه "الحكمة العملية"، في عالم أصبحت أخلاقه الكلاسيكية القديمة – وفي القلب منها أخلاق الواجب الكانطية – ليست مؤهلة من جهة ولا تكفى لأنها لا تفهم الوقائع الجديدة، ولم تكن تتوقعها من جهة أخرى.

بمعنى آخر تظل عاجزة عن الإجابة على أسئلة الواقع الجديدة والمعقدة والتي تتسم بالخاصية وخطورة المواقف التي تواجهها، والتي تجبر على الإسراع باتخاذ قرارات، حتى وإن لم تكن نمتلك كل العناصر العلمية المؤكدة حول الأخطار التي نواجهها، خاصة في ظل عالم أصبح يفتقد لمعالم محددة.

وتاريخ ارتباط الأخلاق بالجانب العملي يحيلنا إلى مونتاني (1533 – 1592) إذ كانت دعوته لكتاب عصره الكلاسيكيين دعوة لعدم اليقين المعمم، يحدوه نزعة عدمية للقيم، كانت تكشف نزعته الشكية عن الضعف الجذري للإنسان وعدم قدرته على إنتاج أية حقيقة. لذا سعى للتخلص مما أسماه بالأوهام والتخيلات الدينية والسياسية وإمكانية أن يسند للإنسان حكمة عاقلة ما⁽³⁾، وهو التوجه الذي وجدت له أصداء لدى باسكال (1623-1662) وغيره في فرنسا، وتبناه نيتشه (1844-1900) في ما بعد في ألمانيا. إلا أنه لم يكن أبداً امتداداً لارتباط الأخلاق بالتطبيق كما نفهمه في عالمنا اليوم.

بين Morale و Ethique :

ولكى نضع يدنا على هذه الأخلاق في مجال الممارسة التطبيقية ينبغي الخوض في مشكلة أخرى شديدة التعقيد ليس في لغتنا العربية فحسب، بل أيضاً في اللغات الأوربية. فنحن في لغتنا العربية لا نفرق بين Morale و Ethique فنترجم المصطلحين "بالأخلاق"، وربما لا نكثر كثيراً بمصطلح Déontologie، وهو ما يعنى لغوياً علم الواجب، أو كما أقوم بترجمته "ميثاق شرف المهنة".

منذ اليونان كان مصطلح (Éthique) (Èthos) يُرد إلى آداب السلوك Moeurs واعراف Coutumes أى أنه كان لصيق الصلة بالاستخدام الاجتماعي، وبكل ما يتصل بالأفعال الإنسانية من قيم ومقاصد. إذ كانوا يعتبرون أن

الآداب والأعراف تصبح فى الإنسان طبيعة ثانية *Secondenature* فى شكل عادات *habitudes* واستعدادات *Dispositions*⁽⁴⁾، وهو ما سيؤكد عليه هيجل كما سنرى. كانت "Éthique" تعنى لدى أرسطو علما عمليا هدفه فعل الإنسان باعتباره كائنا عاقلا يهدف إلى الفضيلة فى سلوك الحياة (وهو الخير الأسمى). ولدى سبينوزا كان يعنى المصطلح أنه يحرر الإنسان من عبودية المشاعر ويعلمه أن يعيش سلوكا عقليا، معارضا للأحكام المسبقة والخرافة، بالإضافة لاحتوائه على المعرفة التأملية لله، الجوهر الواحد الذى يملك ما لا يتناهى من الصفات ويقود للغبطة (وهو أيضا خير)⁽⁵⁾.

وفى الحقيقة تأتى إشكالية المصطلح مع كانط. كان هدف البحث فى الفلسفة الأخلاقية - كما رأينا - هو الإجابة على سؤال الغايات ومصير الإنسان من أجل أن يستضى فى اختياراته العملية، ووضع "الخير" التى اختلفت المذاهب فى تعريفه كمبدأ معيارى للفعل الإنسانى. ومهما كان الخلاف إلا أن الموضوع كان يخص مسألة طرح أسس الحياة السعيدة. إلا أن كانط الذى رفض منذ البداية كل أخلاق تخضع للتعريف المسبق للخير لكونها مرتبطة بشروط الممارسة الخاصة، أوضح أن ضرورة العقلانية تستوجب فى ذاتها ضرورة ما للكونية، ليصبح الفعل الأخلاقى هنا صالحا لكل إنسان، ومن ثم أصبح لعلم قوانين الحرية لديه شقا امبريقيا هو الانثروبولوجيا العملية، وشقا عقلانيا هو الأخلاق *Morale* بمعنى الواجب، وهو لديه قاعدة عقلية وكونية بالضرورة ومباشرة⁽⁶⁾ إلا أن واقعنا المعيش يلح علينا بمعايناته بأنه لا يمكن الإقرار مع كانط بكونية كل المعايير والقيم أو أنها أخلاق لقيم نهائية، صحيح أن البعض منها له طابع كوني، لكن هناك معايير وقيم وضرورات أخرى اختيارية. ويمدنا أحد الباحثين بنموذجين كاشفين. فمبدأ "لا تقتل أبدا" على سبيل المثال يفرض على الجميع لارتباطه بالأخلاق الكونية، بينما عبارة "يمكن أن تكون فنانا، إذن يجب عليك أن تكون كذلك"، الإلزام هنا يستند على قيم تتبناها الذات، أو مثل أعلى ترغب الذات فى الإخلاص له. الضرورة والإلزام هنا لا تعنى للذات أن الآخرين سيقومون باختيار ما اختارته⁽⁷⁾.

إلا أن التساؤل الذى يفرض نفسه، ألن تكون هذه القيم والمعايير الأخلاقية

الاختيارية نوعا من أخلاق فردية انعزالية تنسف هذه القيم ذاتها عندما تخرجها من فضائها الكوني وتجعلها رهينة للاختيار الذاتي؟ هذا ملاحظه هابرماس واعترض عليه، فأطلق عليها "أخلاق الاستقلال"، بمعنى تلك الأخلاق التي تخص كل ذات على حدة، فى نفس الوقت الذى اعترض فيه على "أخلاق تحقيق الذات" التى تخص كل منا، رغبة فى إعطاء معنى لوجودها، وذلك بحجة أن هذه الأخلاق تتمتع بوضعية إنسانية تتيح لها بأن تكون كونية⁽⁸⁾. إلا أن الاعتراض السابق استند فى تأملاته على نوع من التفكير النظرى التقليدى الذى لا يقبل عقليا بأن تنتشظى القيم، ومن هنا ظل أمينا للأخلاق الكانطية الكلاسيكية، بينما فاته أن الواقع العملى فرض تلك المراجعة النقدية بما حمله من مستجدات غير مسبوقة فى واقع لم يعد هو نفسه بعد عصر كانط. وهذه الأخلاق الكونية، هل تتصور أنها ستنتطبق داخل مجال واحد؟ وهو ما يجعلنا نتصور مدى صعوبة التطبيق، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن كل مجال يتسم بطابعه الخاص، وهو ما يؤدى فى الغالب للتصادم مع المضمون. ولعل هذا ما فطن إليه ماكس فيبر عندما تساءل "إذا ما كان فى العالم ثمة أخلاق Éthique قادرة على فرض معاييرها الإلزامية، مطابقة لمضمونها الأصلى فى العلاقات الجنسية، والتجارية، والخاصة والعامّة، وفى علاقات الرجل بزوجه، وبيئته الخضر، ويا بنه، ومنافسه، وصديقه وعدوه، فى نفس الوقت" ⁽⁹⁾ إضافة إلى أن "أخلاق تحقيق الذات"، وعلى الرغم من ذاتيتها المفرطة، إلا أنها موجهة أيضا للجميع، ولا يمكن القفز عليها مادامت ستحقق توازنا نفسيا للفرد، سينعكس بدوره على توازن المجتمع.

يقترّب المصطلحان Éthique و Morale لحد كبير عند هيجل، الذى اعتبر الحياة الأخلاقية La vie éthique هى التحقيق الفعلى لفكرة الخير من خلال وحدة اللحظة الذاتية (الإرادة)، واللحظة الموضوعية باعتبار أن العالم الخارجى يُطبع بأفعال الإرادة (الآداب moeurs). تكمن الحياة الأخلاقية لديه إذن فى المطابقة بالموروث الاجتماعى والأعراف العقلية. ويؤكد هيجل على فكرة أن الآداب والأعراف تصبح فى الإنسان طبيعة ثانية فى شكل عادات وهنئات ثابتة، آخذا على كانط نزعته الأخلاقية الصارمة⁽¹⁰⁾. إلا أن معضلة هيجل هى الظن بأن أخلاق كانط هى أخلاق للسعادة، وفى الحقيقة – كما يرى عديد من

الباحثين – لم تكن أخلاق كانط إلا أخلاقاً للتمييز، حيث أن الفعل الأخلاقي لديه لا يجعل الإنسان سعيداً، ولكنه (الفعل) يعمل على أن يفخر الإنسان بكونه إنساناً⁽¹¹⁾. والمشكلة الحقيقية للمصطلح والتي تحدثنا عنها في البداية وقلنا أنها جاءت مع كانط هي التي تكمن إذن في نزعة الصورية، فالقانون الأخلاقي لا يقول شيئاً عما ينبغي فعله هنا والآن *ici et maintenant*، بينما ما يريد قوله هو: بأى معيار صوري (الكونية) ينبغي إرضاء مبدأ الفعل الأخلاقي⁽¹²⁾ أو المطابقة مع الواجب الأخلاقي باعتباره قانوناً مطلقاً – رغم تحفظنا على تلك الإطلاقية – ؟ إن تطبيق هذه القاعدة الصورية على مواقف فعلية يصبح إشكالياً. فثمة ظروف يبدو فيها الاختيار مستحيلاً أو على أقل تقدير صعباً، ثمة ما أسماه بول ريكور : (صراعات الواجب) يواجهه القانون الأخلاقي ويوقف عاجزاً عن حله⁽¹³⁾ وبول ريكور الذي أراد حل تلك الإشكالية تصدى لمعارضة أطروحات أرسطو وكانط عندما قام بتعريف *Éthique* من وجهة نظر غائية، إذ يرى أن الخير يكمن في غاية مقصودة لما هو جدير بتأملنا، معتبراً وجهة نظر كانط – على عكس ما رأينا – ديو نطولوجية أى تعترف بالأخلاق المهنية، حيث أن التجربة الأخلاقية *Morale* باعتبارها تجربة فعل ضروري في ذاته لا تكشف عن حكم ما. وسيطرح الهدف الأخلاقي *Éthique* بحكم علاقته بالمرورث الاجتماعي مشكلة العدالة، وسيواجه الواجب الأخلاقي *Morale* في شكل من المنع *Interdiction* أو التحريم، وسيتحقق في حكمة عملية⁽¹⁴⁾.

من هنا وعلى عكس ما تعتقد الباحثة الفرنسية ريس التي ترى أن *Éthique* أكثر نظرية من *Morale* بمعنى أن التعبير الأول – في نظرها – يتجه بشكل كبير نحو تأمل قواعد الأخلاق *Morale* بحيث تعمل على تفكيك قواعد السلوك التي تشكل الأخلاق *Morale* والحكم على الخير والشر⁽¹⁵⁾ على عكس ذلك سنرى أن *Éthique* أكثر قرباً من القيم المحددة بسلوك الأفراد في حياتهم المعيشة أى تميل مباشرة لهذا والآن بينما *Morale* (التي تعنى في اللاتينية *mores* أى *Moeurs* آداب السلوك وخاصة من *Moralis* المترجمة عن *Ethikos* اليونانية) ستمثل القيم المتعالية الموضوعية في قانون بصرف النظر عن السياق. إنها إذن نوع من التأمل حول المبادئ وليست كما كانت تعتقد ريس "تود أن تكون مهدمة ومؤسّسة ومباشرة بمبادئ وأسس نهائية، وذلك عن

طريق بُعدها الأكثر نظرية من خلال إرادتها فى العودة للمنبع⁽¹⁶⁾، وعلى هذا ربطت ريس بين Éthique والنظرية والتأسيس وقواعد الصفات والأحكام الأخلاقية moraux. من هنا ستعنى Éthique إذن وهى المتصلة بالأخلاق التطبيقية – كما عايناهما – بمواقف الحياة العملية باللجوء لحكمة ما عملية تنزع عن فكرة الخير صوريتها عند تقدير الفعل، إنها عبارة عن تأمل تطبيقي – إن صح التعبير – على بعض المواقف الخاصة. وهنا ستكتسب Éthique فى ارتباطها بالتطبيق أهمية عندما ترتبط بالنظر والعمل معا، وعندما تتخذ موقفا أخلاقيا وتطرح تساؤلات أخلاقية. تكتسب شرعيتها إذن فى ارتباط الممارسة بالمعايير والمبادئ التى تقف وراء الفعل الذى نقوم به فى الممارسة، فهى تقوم بتحليلات تأملية للقيم وتعيد التناول النظرى للممارسات ومعايير السلوك، وهى غالبا ما تحيل إلى أخلاق بديلة وغير تقليدية⁽¹⁷⁾.

من هنا تصبح رؤية الباحثة Russ ريس من أن Éthique هى "مجموعة القواعد الخاصة بثقافة ما، وأيضا مذهب ماوراء أخلاقى métamorale"⁽¹⁸⁾، باعتبارها نظرية مفكر فيها حول الخير والشر والقيم والأحكام الأخلاقية. أى أن Éthique تقوم بتفكيك قواعد السلوك والبنيات وقواعد التأسيس لكى تغوص حتى تصل إلى قواعد الإيجاب المختبأة. تصبح هذه الرؤية إذن بعيدة عن المنحى الذى قمنا بتبينه هنا، وربط الممارسة بالمعايير والمبادئ أو تحلل وتأمل القيم، أى إعادة التناول النظرى للممارسات لا يمنع أن هناك مخاوف كثيرة من لجان الأخلاق التى تقوم بهذا العمل، إذ إن هذه اللجان والعناصر التى تشكلها – كما يرى بعض المراقبين – تعطينا الانطباع بطابع تكنوقراطى أو تقنى، مما يجعلنا نتخوف من إمكانية الانحراف البيروقراطى. ففكرة أن الخبراء سيقروا (وهى متصلة بأزمة الحداثة) تجعل فى الأفق دائما ثمة خطر محتمل من نزعتى العلمية والتقنية، وهما ضد الأخلاق على طول الخط أكثر من ذلك فإن أحد الباحثين يوصى بضرورة عدم استخدام تعبيرى Morale أو Éthique وحدهما ولكن دائما بتخصيصهما أو بإضافتهما لمصطلح آخر يصاحبها ويخصصهما، أى لا نقول "أخلاق" فحسب، ولكن "أخلاق كونية" أو "أخلاق ذاتية" على سبيل المثال⁽¹⁹⁾ ولا ينبغى أن نفهم أن التمييز الذى قمنا به بين المصطلحين قد تأسس على الاشتقاقات اللغوية أو الاعتبارات التاريخية فحسب، بل يمثل حاجة ماسة أيضا فى الواقع للتعبير عن الهموم والأسئلة الجديدة المثارة.

ميثاق شرف المهنة Déontologie :

هنا سينبغي النظر في مصطلح Déontologie، فكما أسلفنا هو علم الواجب كما قام بتعريفه ليتريه Littré⁽²⁰⁾، أو ميثاق شرف المهنة كما ترجمته، وهو ما يعنى الواجبات والأعراف المحددة التي تفرضها المهنة على من يقومون بممارستها، لذا نجد عديد من موائيق الشرف تلك بعدد المهن المختلفة، وهي تعبر عن قوانين فى شكل قواعد لموائيق شرف مهنى فعلية، يعمل احترامها على الحفاظ على المستوى الأخلاقى فى ممارسة المهنة، وقد دخل المصطلح لأول مرة مع قانون قدمه رئيس نقابة الأطباء بفرنسا Ordre des Médecins 1945، وأصبح قانونا فى 1947، وأخذ يتردد المصطلح تباعا فى المهن الأخرى⁽²¹⁾، وتجمع فيها الحالات التي يقابلها ممارس المهنة، وهي تتصل بمعايير كثيرة بعضها بالضمير، والولاء والانتماء للمهنة، كما ترتبط بعقوبات توضع للمخالفين، تتصل بالتشريع المهني، والمنازعات داخل المهنة، مع ذلك فهناك صعوبة كبيرة فى صياغة قواعد تحكم السلوك فى قوانين كاملة. ورغم أن هدف ذلك الميثاق منفعة أعضاء المهنة إلا أنه يؤدي فى الوقت نفسه لمنافع اجتماعية عديدة⁽²²⁾

لكن السؤال الملح هنا : ما الفارق إذن بين Éthique كما عرفناها وبين Déontologie؟ خاصة إذا كان حقل كل منهما هو المواقف العملية والجزئية فى الواقع المعيش :

1- مع أن Éthique تتسم بالجزئية باعتبار أنهما تعمل فى مجال محدد، إلا أنها ذات طابع عريض، فتطرح على نفسها أسئلة تتصل بعلاقة هذا الجزء الذى يتسم به مجالها بحياة الإنسان والعالم. والانسام هنا بالجزئية تأتي باعتبارها تعمل فى مجال محدد كالبيئة، أو البيولوجيا أو الأعمال أو السياسة، وغيرها، وكل منهما يمثل مجالاً محددًا. وهى ذات طابع عريض بمعنى إذا أخذنا مجال البيئة كمثال فسوف نجده يتسم بطابع عريض فى المعالجة فالبيئة تشمل المصادر الطبيعية، والغازات المحيطة بالأرض، والتنوع الحيوى، وحالة الغابات والأنهار والبحار. . إلخ هذا من

جهة، ومن جهة أخرى تتسم معالجة هذه الموضوعات بتدخل علوم شتى لفهم الظاهرة البيئية مثل علم الظواهر الجوية Méteodogie، والفلات، والكيمياء، والبيطرة، والطبيعة،.. إلخ، إضافة إلى مجموعة أخرى من العلوم النظرية كالقانون لمعرفة الأبعاد القانونية لتلافي التشريعات القائمة وتطويرها للتواكب مع التغيرات الجارية، والاقتصاد الذى يدخل فى حساب التكلفة المفترضة لبعض الظواهر البيئية، كحساب حجم تلوث مصدر مائى نهري أو بحرى وغيرها من الظواهر.

فيما يتعلق بميثاق شرف المهنة Déontologie فهو يتسم أيضاً بالجزئية حيث يقتصر على مجال مهنى محدد. ومن الممكن أن تشترك أكثر من مهنة فى دراسة موضوع معين ومع ذلك لا يخرج هذا الموضوع عن إطاره المحدد، فالأسئلة المطروحة تظل تتصل بممارسة فيصل محدد من الأفراد أصحاب المهنة الواحدة أو أصحاب مهن أخرى فمن الممكن على سبيل المثال أن يناقش موضوع "الطفولة والمراهقة" فيقوم بنقاشه ودراسته نقابات الأطباء، والمحامين والعاملون بالخدمة الاجتماعية، فرغم اختلاف أصحاب المهنة إلا أن الموضوع يظل محددًا وذو طبيعة دقيقة.

2- ليست هناك قواعد أخلاقية معروفة سلفاً لـ Éthique فهى تتعامل مع اللامتوقع L'imprvisible، وغير المعروف فى ظل ظهور تكنولوجيات جديدة أدت لتراجع شديد لسلطات الإنسان على تقنياته التى كان يمتلكها، وهو ما أدى إلى ما يطلق عليه علماء الأخلاق "بالفراغ الأخلاقى" Vie éthique الذى يعنى غياب معالم كلاسيكية قديمة يمكن أن تؤطر رؤيتنا المعاصرة، أو قدرة على تأطير تلك الرؤية، فالقواعد الكلاسيكية القديمة الأنطولوجية والميتافيزيقية والدينية لم تعد تفى بحاجة أخلاق اليوم. حيث نجد أنفسنا مطالبين باتخاذ قرار ما ونحن لا نمتلك كل العناصر العلمية المؤكدة حول الخطر الذى نواجهه، فالقرار هنا ليس مجرد تطبيق لمعرفة علمية أو لقيمة أخلاقية معروفة، بل يستدعى معايير أخلاقية جديدة، مع الحيطة واليقظة. بينما فيما يتصل بالـ Déontoleogic فإن القواعد التى ستطبق معروفة سلفاً ومنتفق عليها مواضعة، وهى تتكرر باستمرار فالقرار مجرد تطبيق

لنصوص وأعراف موجودة سلفاً ضمن بنود ميثاق شرف المهنة.

3- تظل الـ *Éthique* فى حاجة دائمة إلى التخصصات الأخرى، التى لا يمكن الاستغناء عنها على الإطلاق – كما أوضحنا – فمشاكل البيئة على سبيل المثال ينبغى أن تعالج من خلال علوم عملية وأخرى نظرية، وتظل هذه المشكلات غير مفهومة، أو محددة الفهم من قبل دارسيها بدون مساعدة مناهج التخصصات الأخرى. وهذا على عكس الـ *Déontologie* التى لا تقتضى بالضرورة التخصصات الأخرى، فيمكن التنسيق مع التخصصات الأخرى حول موضوع محدد، كما يمكن الاستغناء عن هذا التنسيق دون أن يغير هذا شيئاً، ولا يؤثر كثيراً فى القرار الذى يتم اتخاذه.

4- ليس لـ *Éthique* حدوداً معينة فهى تهتم بالبشر والطبيعة وحتى الحيوانات، وتعامل جميع هذه الموضوعات باعتبارها شريكة الإنسان فى الوجود. ومن هنا يمكن أن تصل بنا إلى نوع من البيولوجيا المركزية *Biocentrique* التى قام بتطويرها هولس روستون *Holmes Roston* وبول تايلور *Paul Taylor*. أو يمكن أن تصل بنا أيضاً إلى أخلاق مغلقة على البيئة *Éthique écocentree* كما وجدنا ذلك لدى ألدو ليوبولد *Aldo Leopold*. ولعل هذا عكس ما الـ *Déontologie* التى تقف فى حدود ما هو آدمى ولا تتعداه، أى تنحصر فى فضاء الذين يمارسون مهنة بعينها، ولا تخرج عن هذه الحدود الأدمية.

5- فيما يتصل بالاختصاص فالأخلاق الطبية *Ethique Médicale* على سبيل المثال والتى تمارس عملها عن طريق اللجنة الاستشارية القومية للأخلاق تنحصر مهمتها فى التفكير فى المشكلات الأخلاقية التى يعالجها ويواجهها البحث. بينما تعالج *Déontologie* المسائل الأخلاقية التى تطرحها الممارسة ذاتها، فمثلاً ميثاق الشرف الذى يخص نقابة الأطباء يقوم بمعالجة المسائل الأخلاقية التى تفرضها الممارسة الطبية، وهنا تمارس سلطة العقاب على الأطباء الذين لا يحترمون ميثاق شرف المهنة.

نماذج لبعض الأسئلة المثارة فى مجالات الأخلاق التطبيقية :

ولكى نقرب أكثر لطبيعة المشكلات الجديدة المثارة على أرض الواقع سنعرض لبعض هذه المشكلات كما تتم معالجتها فى مجالات الأخلاق التطبيقية :

مجال الإنجاب والجنس :

يواجه المختص فى هذا المجال بعدد من الأسئلة من قبيل : فى أى عمر وفى أى ظروف يمكن أن يكون الزوج والزوجة مؤهلان ليكونا أبوين ؟ ما هى شروط الحد الأدنى الواجبة لاستقبال طفل؟ هل مقبولا، وفى أى شروط يمكن إجهاض حمل قد تم بالفعل؟ هل من المرغوب فيه معرفة حالة الطفل قبل الولادة ؟ هل من المشروع إجهاض حمل بسبب عدم اتساق الطفل مع ما ينتظره منه المجتمع ؟ هل من المرغوب فيه الإنجاب خارج أية علاقة جنسية (أطفال الأنابيب) وربما فى ظروف تجعل الجنين مجهول النسب ؟ ما هو موقع الجنس داخل سياق إنجابى أمام التطورات التقنية التى تفصل بين الإنجاب والجنس ؟ وغيرها من الأسئلة التى لم تكن مثارة من قبل، ولم تستطيع الأخلاق الكلاسيكية وحدها الإجابة عليها.

مجال الأخلاق الطبية :

يهتم الباحث فى هذا المجال بإيضاح الفعل الذى نقوم به فى الممارسة، نظرا لغموض كثير من التقنيات المستخدمة، وفى نفس الوقت محاولة التعامل مع الإنسان باعتباره ليس باله يمكن التعامل معها والتأثير فيها، وبالتالي لا بد من التعامل مع إنسانية الإنسان وخصوصيته المرتبطة بالجسد الحى الذى نتعامل معه، إذن لا بد من احترامه لأنه يشير إلى حقيقة شخصية. إذن لا بد من رد الاعتبار للكائن الحى الإنسانى باعتباره يعبر عن إرادة وحرية وخصوصية، وفى نفس الوقت على الباحث أن يستند فى هذا التعامل على مبدأ المسؤولية تجاه التجارب البيولوجية التى أجريت على الادميين. فى نفس الوقت الذى لا بد وأن نتعامل مع كل جسد إنسانى على مبدأ العدالة، خاصة إذا كنا نواجه مشكلات من قبيل : بيع الأعضاء البشرية، وهى تجارة رائجة فى المجتمعات الفقيرة. لا بد أيضا من أن يتم التعامل مع المريض باحترام عند تركه أن يقرر

مصيره بيده، وفي نفس الوقت التعامل ليس فقط مع المرض والقضاء عليه ولكن أيضاً مع الألم والتخفيف منه، وهو ما طرحته لجان الأخلاق فى الفترة الأخيرة.

مجال أخلاق الحياة الاقتصادية :

يواجه الباحث الأخلاقى فى هذا المجال عديد من التساؤلات الهامة، باعتباره مجالاً حيويًا لا تخلو منه الحياة المعاصرة، وهى أسئلة من قبيل : أى موقع يحتله الاقتصاد فى المدينة ؟ وأية علاقة يمكن أن تقام مع السلطة السياسية ؟ وإذا ما كان إنتاج الثروات هو الهدف الأساسى للاقتصاد، هل ستعتبر كل الوسائل التى ستخصص الإنتاج مشروعة ؟ ما علاقة تلك الوسائل باستغلال العمال ؟ وما الأخطار المترتبة على توفير المصادر الطبيعية ؟ هل من الواجب أن نعدد توزيع الثروات بعدد غايات الاقتصاد ؟ هل تكون ممارسة النشاط الاقتصادى غير هامة للحاجات الأساسىة لجزء معين أو شريحة ما من الشعب ؟ هل يكون التأمين وتوجيه السلطة للحياة الاقتصادية مبرراً ؟ هل يفترض تنظيم الاقتصاد عدم جدوى الساسة ؟ وما هى الضغوط التى تمارسها السلطة الاقتصادية على السياسة، وما دور الفساد ؟

ألا تحدد حالة التطور الاقتصادى معايير العدالة فى المجتمع، كيف نميز بين الوسائل والغايات فى الاقتصاد ؟ هل نركز لقوانين السوق شأن تنظيم النشاط الاقتصادى ؟ ... إلخ.

وغيرها من الأسئلة المثارة فى هذا المجال.

هناك أيضاً مجالات كثيرة متعددة ومتشابكة لها أسئلتها الهامة وموضوعاتها الشائكة مثل : مجال أخلاق البيئة، ومجال أخلاق الأعمال، ومجال أخلاق السياسة، ومجال أخلاق الميديا (وسائل الإعلام)، ولا يتسع المجال هنا للدخول فى شرح للأسئلة المثارة بها. وفى الختام نقول: إن كل القضايا والموضوعات التى طرحناها، نحن فى العالم العربى أحوج ما نكون إلى مناقشتها وتفهمها وتتبعها، فمناقشتها فى الغرب أدت بالفعل إلى رسم بعض التخوم والمعايير بين النظر والعمل فى الأخلاق فى مجالاتها وحقولها المختلفة التى فرضها تطور المجتمعات المعاصرة. فى حين أننا مازلنا لا نميز فى عالمنا العربى بين هذه الحقول على المستوى النظرى، فما بالنا بالمستوى العملى ..

هو امش

1- انظر على سبيل المثال :

- J. Bernard, De La biologie L'éthique , : Paris, Buchet - Chastel, 1990.
- J. Couture, Ethique et rationalité, Liège, Madarga, 1992.
- F. - A. I Sambert, De la religion à L'éthique, éd. Du cerf, 1992.
- J. Habermas, Morale et Communication, Paris, Cerf, 1988.
- H. Hude, Ethique et Politique, éd. P. U. F., 1992.

2- أدى التسارع فى التقدم البيولوجى الذى تحقق فى السنوات الأخيرة بالدول الغربية إلى إنشاء لجان أخلاقية تعمل على تأمل المشكلات التى تفرضها ظروف الواقع التى أملاها التقدم البيولوجى والطبى، خاصة فى مجال الهندسة الوراثية، وتضع الحلول الأخلاقية الملائمة. هذا وأنشئت اللجنة الوطنية الفرنسية للأخلاق فى عام 1983، وابعبها إنشاء لجان أخرى وطنية فى حوالى عشرين بلدا أخرى.

انظر فى هذا :

J. Russ, La Pensée Éthique Contem Poraine P. U. F., Paris, 2 édetion, 1994, PP. 103 - 104.

3- Montaigne, Essais, Livre II, Pléiad, Gappimard.

4- انظر :

- Elisabeth Clément (entre outress), Pratique de la Philosophie, éd. Hatier, Paris, 1994, PP. 118, 119.

5- Ibid., P. 119.

6- Ibid., P. 237.

7- Vincent Des Combes, Il ya Plusieurs morales et Plusieurs éthiques, In Mag. Littéraire No 361, Janvier, 1998, P. 41.

8- Ibid.,

9- M. Weber, Politik als Beruf, 1919, In Le Savant et Le Politique, Plon, P. 169.

10- Elisabeth Clément, op. Cit., P. 119.

11- Ibid.,

12- راجع هذه الفكرة في :

Ibid.,P. 237.

13- Ibid.,

14- Ibid., P. 119.

15- J. Russ, La Pensée Éthique .. op., P. 5.

16- Ibid.,

17- Elisabeth Clément, op., P. 119.

18- J. Russ, La Pensée . . . op. cit., P. 5.

19- Vincent Des Combes, Il Ya.., op. cit., P. 40.

20- Encyclopedia universal is, Corpus 7,Paris, 1993, P. 188.

21- Ibid.,

22- تقوم أيضاً جهود حثيثة لمحاولة إيجاد Déontologie تجمع بين المهن المختلفة مع احتفاظها بالفاعلية، بحيث تحدد القواعد المشتركة التي

تنطبق على كل المهن، وذلك من قبل ممثلين لمهن مختلفة يعملون جميعاً في سياق الفريق الواحد. وقد بُدلت بالفعل جهود في فرنسا في هذا الاتجاه. إلا أن الملاحظ هو صعوبة هذه المحاولة، خاصة إذا لم تكن منحصرة في اهتمام بعينه يربط بين كل تلك المهن المختلفة. بذلت محاولة في مجال "الطفولة والمراهقة" ففي مجال حماية الطفل من الأخطار الأخلاقية تم التعاون والتنسيق التام بين عدد كبير من المهن مثل المعلمين، ومعلمي التأهيل، وعلماء النفس والتحليل النفسي وأطباء الأطفال والطب النفسي والأخصائيين الاجتماعيين. وكان "الطفل" هو محور التعاون فيما بينهم. وقد أقاموا علاقات بحثية فيما بينهم حول الطفولة والمراهقة مع العائلات وقضاة الطفل.

وحتى الآن لم يستطيعوا صياغة هذا الميثاق المنشود، إلا أن ما استطاعوا القيام به بالفعل هو التوصل إلى ميثاق تحميه السلطات العامة، وذلك للتنسيق فيما بينهم فيما يخص الجهود المبذولة حتى لا تتضارب أو تشذ عن الأهداف المرجوة

(راجع في هذا : (Encyclopedia Universalis, op. cit., P. 188)